مملكة قطنا

تتحدث عن المجد

د. بسام جاموس

رئيس مجلس الإدارة
الدكتورة لبانة مشوّح وزيرة الثقافة

المدير المسؤول - المدير العام: **الدكتور وضّاح الخطيب**

رئيس التحرير: **قحطان الطلاع**

الإشراف الطباعي: أنس الحسن

مقدمه

سورية مهد الحضارات، وأرض الديانات، ومتحف في الهواء الطلق، هذا ما أكَّدته المعطيات الأثريَّة ومقولات علماء الآثار العاملين في سورية.

يوجد في سورية أكثر من عشرة آلاف موقع أثري منها: (مواقع تعود لعصور ما قبل التاريخ وأخرى تعود إلى عصور البرونز أي فترة تأسيس الممالك والمدن، ومواقع تعود للفترة الكلاسيكية، اليونانية والرومانية والبيزنطية. ومواقع أخرى هامة تعود للفترة العربية الإسلامية، ولكن الذي أعطى الأهمية الاستثنائية لسورية هو استقرار الإنسان المستمِّر فيها منذ مليون عام خلت وحتى وقتنا الحاضر، إضافة إلى ذلك التنوع المناخي والثقافي الموجود فيها وصلاتها الوثيقة وعلاقاتها الحضارية مع ممالك بلاد الرافدين وممالك حوض البحر المتوسط وغيرها وهذا ما أكَّد استقبالها للمؤثرات الثقافية ما جعلها ملتقى لعدة حضارات كان لها دورٌ حاسمٌ في تاريخ الإنسانية.

خلال الألف الثالث قبل الميلاد، قامت في سورية ممالك ومدن نذكر منها إبلا، ماري، تل بيدر، أوغاريت، قطنا، وعمَّقَّت اكتشافات هذه المواقع معارفنا بالتاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي والفني والديني والثقافي لمنطقة بلاد الشام وممالك المتوسط من خلال الأدوار التي لعبتها في مجرى التاريخ وخاصة على صعيد تنظيم المجتمع والاقتصاد والفكر، لذلك قالوا عن سورية: (لكل إنسان متمدّن وطنان، وطنه الأصلي وسورية).

الموقع والاكتشاف:

تقع مملكة قطنا «المشرفة» شمال شرق مدينة حمص، على بعد (٢٠كم)، تتميز بسورها وبواباتها الأربع، وتبلغ مساحتها حوالي (٦٠هكتار)، وكانت محطة تجارية ومركزاً زراعياً وازدادت أهميتها في الألف الثاني قبل الميلاد.

بدأت أولى الاهتمامات بالموقع، عندما قدم الكونت روبير دومنيل ديبويسون مع الجيوش الفرنسية زمن الانتداب، وكلفّه الجنرال بيكو بإجراء دراسات عن



خارطة المواقع الأثرية في سورية

(تبين موقع قطنا)

الوضع السياحي والأثري للمنطقة، وبدأ أعماله الميدانية في الموقع بين أعوام (١٩٢٤-١٩٢٧- ١٩٢٩)، وأشارت تقاريره العلمية الأولية إلى استقرار حضاري في الموقع

منذ الألف الثالث قبل الميلاد أيٍ فترة عصر البرونز القديم، وشملت دراسته توثيق اللُقى الأثرية والمباني، ولم يكتف بالعمل في موقع قطنا فحسب بل قام بأعمال كثيرة معَ جامعة بال والأكاديمية الفرنسية للنقوش والكتابات كشفت عن موقع (دور أوربوس) (صالحية الفرات) وقام بنشر أبحاثه الأثرية والانتروبولوجية حول المنطقة في المجلات الفرنسية المختصة بالتراث.

وفي مطلع التسعينيات من القرن الماضي شُكِّلتَ بعثة أثرية وطنية للعمل في الموقع بإدارة عدنان البَني وعضوية بسام جاموس وميشيل المقدسي وتابعت أعمالها في الموقع المذكور، وفي عام (١٩٨٨)، شُكلت بعثة أثرية مشتركة بإدارة ميشيل المقدسي عن الجانب السوري، وبيتر فلزنر عن الجانب الألماني، ودانييلي موراندي عن الجانب الإيطالي ومازالت أعمال التنقيب و التأهيل مستمرة.

اسم قطنا في النصوص:

تذكر محفوظات ماري العائدة للقرن (١٨ق.م) أنَّ قطنا كانت بمثابة قطب الرحى لسورية كلها وفلسطين،

ولقد عثر في ماري على أرشيف ملكي مهم بين عامي (١٩٣٤-١٩٣٨) يحوي نصوصاً سياسية واجتماعية ورد فيها اسم قطنا حوالي سبعين مرة، وعثر على العديد من الرسائل المتبادلة بين ملوك قطنا وملوك ماري، منها ست رسائل من (إشخي أدد) ملك قطنا إلى الملك (يسمخ أدد) ملك ماري وبالعكس وكذلك تبادل الرسائل بين (أموتبيئيل) ملك قطنا والملك زمري ليم ملك ماري، وكانت هناك حدود سياسية وإدارية بين هذه الممالك.

رسائل تل العمارنة:

هي مجموعة من الألواح الطينية المكتوبة بالخط المسماري تمّ اكتشافها عام (١٨٨٧) وتتحدث عن الرسائل بين الملوك، إضافة إلى النصوص الملحمية، من بينها ست رسائل لها صلة بقطنا، إضافة إلى العثور على الكثير من البضائع المصرية في مملكة قطنا تعود للأسرة الثانية عشرة والثالثة عشرة (حوالي القرن ١٩ق.م) ومن أهم هذه القطع تمثال ملكي على هيئة أبي الهول، يحمل اسم الأميرة (إيتا) ابنة الملك (امنمحت) الثاني، بالإضافة إلى أواني

من المرمر والألباستر ولوحات الفنكس على الرقائق الذهبية المكتشفة في المدفن الملكي مما يدل على وجود علاقات حضارية بين قطنا ومصر.



لوحة ذهبية عليها مشهد السفنكس (العنقاء)

كما أشارت النصوص المكتشفة في قطنا على وجود علاقات مع الحثيين في فترة عصر البرونز الحديث

وتحديداً القرن (١٤ق.م)، كما أكدت هذه النصوص على وجود علاقات حضارية كانت تربط قطنا مع العالم الإيجي، وبلاد الرافدين – وأشارت إلى التبادل الدولي، وفي مقدمتها خمس رسائل من الملك (أكيزي) ملك قطنا الموجه إلى أخناتون يطلب فيها ذهباً لأحد تماثيل الآلهة، واكتشفت في القصر الملكي في قطنا حليٌّ ذهبيةٌ نُقشَت عليها رسوم فيها تأثيرات مصرية واَضحة،كما وَجدت عليها مؤثرات أناضولية و إبجية ودلّت على التبادل التجاري والثقافي الذي بلغ أوجه في القرن (١٤ق.م) الذي يعتبر العصر الذهبي لازدهار الممالك، وخاصة لمملكتي قطنا و أوغاريت.

قطنا المدينة:

لعبت عدة عوامل أساسية بيئية وطبيعية دوراً في استقرار الإنسان في هذه المنطقة وتأسيسه لمدينة قطنا، وأكدت الدراسات الجيولوجية والمورفولوجية على وجود مصادر مائية كالبحيرة وخزانات الماء التي بنيت على أطرافها هذه المدينة التي تبلغ مساحتها حوالي ستين هكتاراً، والتي ساعدت المجتمعات القروية في الاستقرار

و ممارسة الزراعة وتربية الحيوان، والتنظيم الإنتاجي الذي يهدف إلى تطوير قاعدة المدينة التي يرتكز عليها التركيب الاجتماعي والاقتصادي، وهذه التطورات تؤكد على الاستيطان الأول في قطنا في مرحلة نهاية الألف الرابع قبل الميلاد وفي مطلع الألف الثالث قبل الميلاد، وفي مطلع الألف الثاني قبل الميلاد بلغ تطورها الذروة وذلك بسبب موقعها الاستراتيجي، وازدياد عدد سكانها، كونها أصبحت محطة على الطرق التجارية، التي تصل الشرق بالغرب.



المدينة

أكدت الدراسات والنتائج الأثرية (الأركيولوجية) على التحول الأبرز في التنظيم المعماري والعمراني للمدينة مع بناء سورها المحصن الذي يبلغ ارتفاعه حوالي ٢٥م، كما أكدت على تميّزها بأبوابها الأربعة، والأهم من ذلك أكدت التحاليل والدراسات على اعتماد المزارعين في قطنا، على زراعة الزيتون والعنب وتصدير الفائض منها (أي تجارة الزيوت والخمور).

بوابات المدينة:

للمدينة أربع بوابات رئيسية، ولكل بوابة وظيفة، منها بوابة لاستقبال الوفود، وبوابة للتجارة وحركة الاستيراد والتصدير، وأخرى كانت تستخدم من قبل سكان المجتمع المحلي لكافة الأغراض الاجتماعية والاقتصادية، وكانت البوابات مجهزة بأبراج دفاعية وحراس كونها تشكل الثقل الأساسي لتأمين الأمن والأمان للمدينة قبل حوالي خمسة آلاف عام خلت من وقتنا الحاضر . وهناك لوح مسماري يذكر البوابات، ووظائفها، وحراستها، ويحمل اللوح التسمية(K701) ويؤكد الباحث جسيبر أيدم أن اللوح ذكر عدد البوابات

وعـدد الحــراس، وكـميـات الـبـيرة الـتي كـان يشربها السكان.

كان شكل المدينة دائرياً خلال الألـف الثالث قبل الميلاد، ثم بدأ تطور المرحلة العمرانية في الألف الثاني قبل الميلاد، حيث اتسعت مساحتها، وأصبحت تزيد على (١٠٠ هكتار) وتغيّر شكلها من الدائري إلى الشكل المربع، وفي عصر البرونز الحديث (١٦٠٠-١٢٠٠ ق.م) بدأ مهندسو المدينة بإشادة القصور الملكية والمعابد والمباني التابعة لها وتمّت إعادة تنظيم المدينة.

في عام (٧٢٠ ق.م) تمّ تدمير المدينة من قبل سرجون الثاني، وهُجرت الكثير من القرى لكن خلال المرحلة الهيلينية حوالي (٣٣٠-٣٠ق.م) حدثت تغيرات في عمليات البناء التي شيِّدت حول أماكن ودور العبادة، لكن المدينة استعادت أهميتها خلال فترة احتلال الإسكندر المقدوني لها في القرن الرابع قبل الميلاد.

قصور المدينة:

اشتهر مهندسو المدينة ببناء القصور التي تميزت بالضخامة والفخامة والتي اعتبرت رمزاً للسلطة

والرفاهية والغنى، والمركز السياسي والاقتصادي. ودلّت هذه المنشآت على إظهار القوة والسلطة أمام أعين حكام الممالك.

قصر المدينة المنخفضة:

بُني هذا القصر خلال العصر البرونزي الحديث (١٦٠٠-١٢٠٠ق.م) وكانت وظيفته متنوعة فاستخدم من قبل الملك وأصحاب المناصب العليا في البلاط الملكي، وللأعمال الإدارية ولأداء الطقوس والمراسم إضافة إلى أنه كان مقراً لسكن أفراد العائلة الملكية. يقع القصر بين القصر الملكي والبوابة الشمالية للمدينة، وبلغ عدد غرفه (٦٥) غرفة. دلّت مخططات القصر على النمط المعماري المتطور، ويُعد مثالاً معبراً عن هندسة القصور في فترة العصر البرونزي الأخير في سورية.

يتألف القصر من ثلاث باحات كبيرة، تربط أجنحة القصر ببعضها البعض، وجناح المراسم والاستقبالات وقاعة العرش، واستخدم الخشب والألوان في عمليات البناء وزخرفته، إضافة إلى الحمامات والمخازن والمطابخ. وكانت هناك منشآت لها وظائف متعددة،

كغرف الاستخدامات الاقتصادية، وورشات الحرف وغرف الأرشيف الكتابي، ويدّل ذلك على وجود تنظيم سياسي واقتصادي متين.



قطنا قصر المدينة المنخفضة (القرن ١٦-١٤ق.م)

القصر الشرقي:

أدت التنقيبات الأثرية في موقع قطنا إلى اكتشاف قصر مهم، وتم إجراء أسبار أثرية أعطتنا نتائج تشير

إلى طبقتين أو مستويين يعودان إلى العصر البرونزي الوسيط (٢٠٠٠-١٥٥٠ق.م) وأخرى تعود إلى العصر البرونزي الحديث (١٦٠٠-١٢٠٠ ق.م) وهي عبارة عن مبانٍ شيِّدت من الآجّر الطيني، والجدران المبنية من الطيِّن المدكوك ويبلغ عرضها (٣,٥ م ويصل طولها حتى ١٨م) ويتألف القصر من باحة كبيرة تحيط بها الغرف، كما عثر على شارع معبد بالحصى.

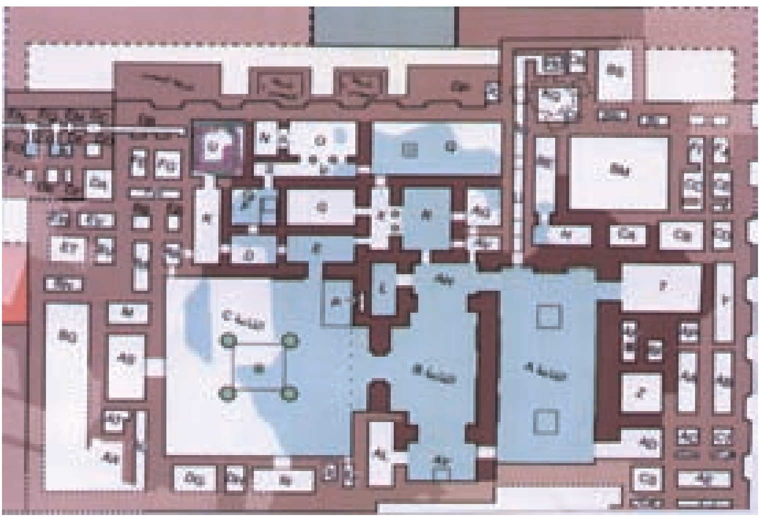


القصر الشرقي

وعثر في القصر على بعض اللوحات الكتابية، وطبعات أختام عليها كتابات مسمارية، وأوان فخارية منها محلية وأخرى مستوردة، وتدل على وجود علاقات حضارية بين مملكة قطنا وممالك أخرى.

القصر الملكي:

بني هذا القصر من الطين، وكانت السقوف مغطاة بالأخشاب، ويبلغ طول المبنى حوالي (١٥٠م) وعرضه (١١٠م) وهو من أكبر القصور في قطنا .



القصر الملكي

عثر في القصر على مجموعة من القاعات الضخمة وأهمها قاعة الأعمدة الكبيرة، التي يوجد في وسطها أربعة أعمدة دائرية يصل ارتفاعها إلى حوالي (١١م) كما عثر في إحدى زوايا القاعة على معبد لآلهة قطنا، أما القاعة الثانية فهي قاعة العرش، وعُثر فيها على بقايا أعمدة، ورسوم جدارية ملونة. وتدل على عظمة وتطور الفنون والسلطة، كما عُثر على مصطبة تمثل منصة كان ينتصب عليها عرش الملك.

اللوحات الجدارية الملونة:

تميزت بعض قاعات القصور المكتشفة في قطنا برسوماتها الجدارية الملونة، وتم استخراج آلاف الكسر الملونة، تضمنت رسوماً لأشجار النخيل وأوراق النبات، وأشرطة حمراء وبيضاء وسوداء وصوراً لورق البردي، وبدا على بعضها آثار حريق وتعود جميعها إلى فترة عصر البرونز الحديث (١٦٠٠– ١٢٠٠ق.م).

تشابه هذه الرسوم الجدارية ما عثر عليه في الحضارة الإيجية، وأكد الباحث فون رودن von ruden أن الرسومات الجدارية مشرقية وتقليد سوري ومعظمها إنتاج محلي.

إن الرسوم المنقوشة على جدران القصر الملكي تدل على ديكور تزييني، له أهمية كبيرة يشير إلى المكانة السياسية والاجتماعية الرفيعة لمالكيه، ويؤكد الباحث أن الملك اختار أسلوب الرسم والتزيين تعبيراً عن الانتماء إلى النخبة، وكرمزٍ للطبقة الاجتماعية العليا، لأن هذا الرسم لعب دوراً مهماً في تثبيت الترتيب الاجتماعي الهرمي في دولة المدينة السورية قطنا.



لوحات جدارية ملونة من القصر الملكي

لم يكتف الملوك بالرسم إنما شملت أختامهم رسومات فنية متنوعَة، وكتابات مسمارية، وكانت طبعات هذه الأختام بمثابة الوثيقة الرسمية لختم المراسلات والمبادلات، وعثر على المئات منها في قطنا، والختم كان بمثابة التوقيع، ودلّت المكتشفات على استعمال الأختام في قصر قطنا من خلال ألواح طينية عثر عليها في أرشيف الملك (أداندا).



لوحات جدارية ملونة من القصر الملكي

ختم الملك:

من أهم المكتشفات في مدينة قطنا ختم الملك .

(إشخي أدد ١٨٠٠ق.م) كان من أقوى الحكام والملوك في تاريخ قطنا، ودلّت على ذلك المراسلات الدبلوماسية التي كانت تجري بين ملوك ماري وملوك قطنا .

تميّز الختم بندرته كونه مزينٌ بإفريز هندسي، مؤلف من شرائط متشابكة، تشير إلى معان رمزية منها الخطوط المتعرجة التي تشير إلى جريان الماء رمز الخصب والانبعاث إضافة إلى طريقة نقش العلامات المسمارية الكتابية التي حملت اسم (الملك إشخي – ادد، ملك البلدان).



ختم ملكي إسطواني

القبر الملكي في قطنا:

كشفت البعثة المشتركة عام ٢٠٠٨ في موقع قطنا على قبر ملكي، أكدت معطياته الأثرية على الغنى الاقتصادي للمملكة من جهة وعلى العلاقات الحضارية التي كانت تربط قطنا مع الممالك المجاورة الداخلية والخارجية، من جهة أخرى كما دلّت اللقى الأثرية على تصوير الآلهة وتقديس الأجداد.



المدفن الملكي

يقع المدفن على عمق (١٣م) تحت القصر الملكي وانطمر المدخل المؤدي إليه بسبب التدمير الفجائي للقصر عام (١٣٤٠ق.م) وهذا ما أسهم في حمايته من النهب والسرقة والتخريب.

كشفت معاول المنقبين عن الممر المؤدي إليه وهو عبارة عن دهليز تحت الأرض يصل طوله إلى حوالي (٤٠م) يقودنا إلى درج يؤدي نحو الأسفل للوصول إلى أبواب تصل بعض قاعات القصر مع الدهليز للوصول إلى المدفن الملكي، وكما هو معروف فإن هذه الأبواب تقود للعالم الأسفل، ويذكرنا ذلك إن الإلهة عشتار تعين عليها عند ذهابها للعالم الأسفل اجتياز سبعة أبواب.

يتألف المدفن من: بوابة دخول، وعُثر في جانبي المدخل على تمثالين لملكين جالسين يدلان على العظمة الاجتماعية والدينية.

الحجرة الرئيسية:

بعداها (٨×٢٨) منحوتة في الصخر، ومقسمة من الداخل بواسطة أعمدة خشبية، ووجدت بداخلها

توابيت حجرية، عثر بداخلها على صولجان من العاج ومجموعة من الأواني الفخارية، وجثث موتى لرجال ونساء وأطفال، أي أنه مدفن عائلي، إضافة إلى قطع حلي ذهبية وأختام وقوارير وأطباق، إضافة إلى اكتشاف منصات حجرية تستعمل للجلوس، والأهم من ذلك عثر على وعاء حجري أهداه أحد الملوك المصريين إلى ملك قطنا نُقش عليه اسم الملكة (أحمس نفرتاري ١٥٥٢-١٥٢٦ق.م)، وكذلك إناء يحمل كتابة مصرية للفرعون (امنمحت الثالث) وتم العثور على أواني كانت تحتوي على مراهم وزيوت، إضافة إلى أحجار كريمة، وأكدت الدراسات أن هذا المدفن كانت له وظائف متعددة، وخاصة عمليات الدفن المنظمة التي تشير إلى طقوس اجتماعية، شعائرية تعبدية تؤكد الإيمان بحياة أخرى.

ودلَّت المعطيات الفنية المكتشفة في المدفن كما أشار العالم الألماني بيتر فلزنر، مدير الجانب الألماني في البعثة المشتركة على أهمية هذه الروائع الفنية النحتية السورية المحلية وخاصة تمثالي الملكين الجالسين على الكرسي اللابسين معاطف مزينة بشرابيب تصل إلى

الكعبين ويمر فوق الكتفين وهو رداء سوري يعبر عن المكانة الاجتماعية لهما، والعلامة المميزة للملوك.

والـيـد اليمنى لكل منهما ممـدودة إلى الأمـام، تحمل إناءً له وظيفة شعائرية ربما المطالبة بتقديم الأضحيات، إن توضعهما أمام مدخل المدفن يشيران للداخل إليه بتقديم أضحيات للملوك أو الأجداد المتوفين (تقديس الأجداد)، وتدل المكتشفات على أن الأفـراد المدفونين هم من الأسرة الملكية ذات النخبة الاجتماعية والسياسية.

تصوير الآلهة وعبادة الأسلاف في المشرق:

شاعت في المشرق القديم فكرة تصوير الآلهة، لكن المجتمعات السورية أدركت أولى التنظيمات الاجتماعية والدينية والاقتصادية في عالم يحيط بها، وبينت أدوار الفرد والأسـرة والمجتمع في هذه البيئة والكون حتى أصبحت لهم رؤى وتـصورات وذلـك من أجل عقلنة القوى الطبيعية وما فوق الطبيعة التي تحيط بهم.

يقول الباحث الكندي ميشيل فـورتـان: اتخذت التجليات الإلهية منذ البداية سمات بشرية، وأنثوية

بشكل خاص ولم تكن رمزيتها واضحة، إنما تجلّت بطريقة التمثيل الحسي لهذه الأفكار المجردة المرتبطة بأولى أشكال التعبير الفني، واشتهرت المجتمعات السورية بتصوير الآلهة عبر العصور وجسدّتها بالتماثيل خاصة في عصور البرونز (٣٠٠٠ – ١٢٠٠ ق.م) والفترات الكلاسيكية اليونانية والرومانية والتي كانت توضح مدى العلاقة بين قوى الآلهة والبشر، وكانت تدور حول العالم الآخر.

كما ظهرت آلهة الربة الأم، وكبير الآلهة إيل، والإله بعل وحدد إلهي العاصفة والمطر والخصب، وكوثر إله الحرف، وعشتار وأفروديت وفينوس آلهة الحب، ومنيرȦz إلهة الحرب، وظهرت آلهة العدالة والفلسفة والتربية، وتجلى ذلك في إنشاء المعابد لها، لممارسة الطقوس الشعائرية في أماكن العبادة هذه، وهذا ما أسهم في نشوء الديانات الكبرى التي كانت تتجسد في الإله الواحد ضمن منظومة ذات قيم روحية، وطقوس تجلت في الاحتفالات الدينية المتنوعة، وتقديم الأضاحي ضمن تقاليد طقسية تشبه طقوس بعض مجتمعات الريف السوري.

لقد برزت في منطقة بلاد الشام آلهة ذات سمات بشرية، ينسب أصلها الإلهي للظاهرات الطبيعية التي كانت تحيط بهم وفق هيئات إنسانية ذات تعابير مجردة مثل الخصب، الجمال، الحياة، الموت، وتجلى ذلك بعبادات متنوعة كتبجيل وتقديس الأسلاف الذي تطّور وأصبح عبادة منظمة وفق سمات بشرية وحيوانية تجسدّت في الديانات الكبرى الموحدة.

الربة الأم:

حظيت المرأة عبر العصور بمكانة اجتماعية ودينية، وصلت إلى اعتبارها أولى الآلهة عند البشر، وسُميت بالآلهة الأم، كونها أوحت بالتجَّدُّد والولادة والخصوبة والأمومة، عُثر على الكثير من الدمى والتماثيل الأنثوية الطينية في مواقع المريبط (الفرات الأوسط) وتل أسود (غوطة دمشق وتل كشكوك (محافظة الحسكة).

لمٍ يكن الدين في حضارات الشرق القديم يشكل بنياناً خالصاً منفصلاً، بل كان يخترق بآلهته وشياطينه وطقوسه المجتمع والثقافة في جميع المجالات، إذ لم يكن ثمة ركنٌ خالٍ من الدين وتأثيره.

وحظيت المـرأة بمكانة مرموقة ضمن المعتقدات الشرقية القديمة التي كانت تستند إلى أديـان تؤمن بتعدد الآلهة كنظام تتفاعل عناصره بهدف الحصول على مكانة ومرتبة إلهيّة.



تماثيل للربة الأم الألف العاشر قبل الميلاد

وعلى ضوء المكتشفات الأثرية تبيَّن أنه لا يوجد في سورية ديانة واحدة، بل هناك أشكال مختلفة لها، لكن تقديس الأجداد كان من أهم الممارسات الطقسية الدينية في ثقافات المشرق القديمة، وهذا ما أسهم في تعزيز الروابط الروحية والاجتماعية لأن هدفه العناية



تل أسود–غوطة دمشق– جماجم ملونة

(عبادة الأجسداد –الألف السابع ق.م)

بـأرواح الأمـوات عن طريق تقديم الأضـاحـي وأداء الطقوس والشعائر وخاصة أيام المناسبات والأعياد وقد تصل إلى مرحلة (تحضير الأرواح) أي التواصل المباشر معهم.

وأشـارت إلى ذلـك مكتشفات تـل أسـود (غوطة دمشق)،إذ أكدّت لنا عمليات دفن الجماجم المنظمة في الموقع وأسلوب تجصيص الوجه، وتلوين الجبهة على عبادة الأسلاف، كون المخ والفكر يقع ضمنها، وهذا ما أسهم جوهرياً في تثبيت الترتيب الهرمي الاجتماعي داخل الأسـرة، وهـذا ما يدّل على ممارسة طقوس شعائرية رمزية اجتماعية، تعود إلى الألف الثامن قبل الميلاد، وهي تمثل أقدم صور لهذه العبادة في المشرق.

يمكننا من خلال دراساتنا وتحليلاتنا القول إنّ بدايات تقديس الأجداد تَعود إلى أقدم مراحل التطور الثقافي في سورية، ويؤكد بيتر فلزنر مدير حفريات الجانب الألماني في موقع المشرفة إن عبادة الأجداد ترمي إلى استمرار أماكن سكن العائلات وبقائها ثابتة بعدما استقرت نتيجة عملها في الزراعة، وبناءً على ذلك فإن

تقديس الأجداد الذي يوصف أحياناً بأنه مهد الدين والمنشأ الأول لعبادة الآلهة، ويُعد من أقدم الممارسات الطقسية الدينية في (غوطة دمشق). وهذا ما أكدته المعطيات الأثرية الأخيرة في مواقع أثرية متعددة من سورية مثل تل أسود وتل خويرة الواقع شمال سورية، حيث عُثر فيه على حرم لتقديس الأجداد وعلى الكثير من ذلك في عصور البرونز وخاصة في ممالك ماري وإيبلا وإيمار وأوغاريت.

وأجريت دراسات كثيرة حول تصوير الآلهة وعبادتها ووظائفها وطقوسها الروحية والاجتماعية كدراسة آلن ويلز في كتابه (معالم تاريخ الإنسانية، ودراسة أ.ب. تايلور في كتابه «الثقافة البدائية» ول ديورانت في مجموعته (قصة الحضارة) وارنست رينان في كتابه (تاريخ ومعتقدات ما قبل التاريخ)، وجاك كوفان في كتابه (الألوهية والزراعة).

وأكدّت دراساتهم على فكرة استمرار وجود الروح وانبعاثها وهذا ما عزّز الاهتمام بالموتى وتقديسهم وانتشار عبادتهم عند المجتمعات القروية والمدنية.

وظهرت عقائد دفن الموتى منذ العصر الحجري القديم الأوسط على يد إنسان النياندرتال، الذي اهتم بموتاه من خلال بعض الطقوس البدائية وابتداعه للقبور في شكلها البدائي، ولاحظنا ذلك في اكتشاف البعثة الأثرية السورية – اليابانية العاملة في موقع كهف الديدرية[١]، إذ عُثر على هيكل عظمي لطفل النياندرتال، وكانت هناك نصلة صوّانية جميلة متوضعة فوق منطقة القلب، وهذا يدل على اهتمام إنسان النياندرتال بدفن موتاه بطريقة شعائرية تدل على قدسية معينة للإنسان، كما عُثر في كهف كراينيا في (كرواتيا) على جمجمة مدفونة بطريقة نظامية لها مدلولات طقسية تدل على أنَّ الجمجمة تكمن فيها قوة الفكر والروح عند الفرد، ولم يقتصر التقديس للبشر وإنما تمّ تقديس بعض الحيوانات لمكانتها وفائدتها وقوتها وفي مقدمتها الماموث والدب والكلب.

ولقد أكدّت معطيات مواقع ما قبل التاريخ في بلاد الشام تصوير الآلهة، وطقوس الدفن، وعبادة الأسلاف، إذ عُثر على ذلك في مغارة الكبارا في فلسطين، وتل أسود

١-الديدرية: كهف يقع في ريف حلب منطقة وادي عفرين.

في غوطة دمشق، وموقع هاشيلا، وشاتال هويوك في الأناضول، وكذلك موقع (أم الماء) عند الساحل الشرقي لقطر، وفي بعض المواقع المصرية المتعددة في عصور لاحقة، لكن فنون التصوير والدفن اختلفت وضعياتها وموادها من منطقة لأخرى، لكنها توحدت في احترام وتقديس المتوفي، والتركيز على مسألة العالم الآخر أي البعث والخلود، وفي مواقع كهوف السخول والطابون عُثر على بقايا عظمية لأحد عشر شخصاً من إنسان النياندرتال أو إنسان الكرمل الأرقى نوعاً، ولوحظ أن واحداً منها كان يمسك في ثنية ذراعه عظمة حيوان ربما كنوع من القرابين[٢].

إن طفل النياندرتال[٣] الذي عُثر عليه في مغارة الديدرية وكانت له أهمية كبيرة، كونه الاكتشاف الأكمل من نوعه في العالم، وأجاب على الكثير من التساؤلات التي تتعلق باستقراره في سورية، ومصيره، وعلاقته بالإنسان الحالي، إضافة، إلى الطقوس الشعائرية لعملية دفنه، كما أعطتنا مواقع الحضارة النطوفية

٢-القرابين: هي التقديمات للمتوفي مثل (الأكباش والخواريف).
٣- نسبة إلى موقع النياندرتال في ألمانيا والذي انقطع استقراره هناك واستقر في سوريا.

(نسبة لموقع وادي النطوف في فلسطين) الكثير من المعلومات الأثرية حول طقوس عبادة الأسلاف، التي سادت في الألف الثاني عشر قبل الميلاد وما احتوته مدافنهم من خرز وحلي عظيمة.

وكانت عمليات دفن الجماجم بأوضاع متباينة لها دلالات جنائزية خاصة، وهذا ما أكدته المعطيات الأثرية في مواقع بلاد الشام والرافدين.



كهف الديدرية - ريف حلب - هيكل عظمي لطفل النياندرتال

في العصر الحجري الحديث (٨٠٠٠–٥٠٠٠ق.م) نرى أنَّ عملية تصوير الآلهة وشعائر دفن وعبادة الأجداد تتوحد في طقوسها وفنها مما يدّل على علاقات حضارية أو وحدة حضارية بين المجتمعات القروية، وأكدت هذا مكتشفات مواقع أريحا في فلسطين والمريبط، أبو هريرة، جعدة المغارة، حالولة، الرماد، وتل أسود في سورية ومنهاتا وعين غزال في الأردن وجبيل في لبنان وكهوف شانيدار – بردابلكا وزاوي شيمي وجرمو في العراق، وكهف بيهستون، وموقع حاج فيروز وعلي كوش في إيران، وموقع شاتال هيوك في الأناضول، ومواقع الصليبخات وكاظمة وطبقات موقع فيلكا في الكويت، ومواقع حلوان – والهضبة الممتدة على طول وادي النيل (مصر).

وفي مطلع عصور البرونز أي مرحلة ظهور المدن والممالك الأولى، حدثت تطورات كبيرة على صعيد تصوير الآلهة والعبادات المتنوعة، إذ تأسست البنية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وخاصة فيما يتعلق بمجمع الأرباب، وأماكن العبادة ومراسم الدفن والأدوار الميثولوجية والطقوس المتنوعة أثناء المناسبات

المهمة، إضافة إلى التطورات التي جرت خلال (الألف الثالث والثاني والأول قبل الميـلاد)، وفي مقدمتها استمرار تقاليد تصوير الأجداد.



تمثال من ماري



الإله بعل من أوغاريت

وصنفت الآلهة وفق نظام اجتماعي تراتبي، كون الناس كانوا يعيشون مع آلهتهم، لأن التدين كان جزءاً لا يتجزأ من الحياة اليومية ويشمل جميع جوانب الحياة، وكانت هناك آلهة مذكرة وأخرى ومؤنثة تم تصويرها ووصفها وذكرتها النصوص المسمارية، وخاصة ما ورد في نص من مملكة إيمار كُتب بمناسبة عيد كبير، ذكر فيه ما يزيد على (٨٠ إلهاً وآلهة) وتضمن قوائم طويلة بأسماء الآلهة متسلسلة وموزعة تراتبياً بانتظام، وهي شديدة التنوع في الأسلوب والشكل والمؤثرات الثقافية المختلفة.

وعُثر في بلاد الشام على الآلاف من الصور التي تعبر عن الآلهة وتعددها، وكانت هناك آلهة منتشرة في كل مكان، فالإله إيل الأعلى في مجمع الأرباب السوري، وعشيرات إلهة عرش البلاط السماوي، والإله بعل المرتبط بالمطر والصواعق أي بالزراعة والذي يسمى (السيد) ويحمل اسم (حدد) أو (تيشوب).

ولقد تحدثت النصوص عن رحلات الآلهة وزياراتهم لأماكن بعيدة فيها آلهة آخرون وكانت تُقام لهم مواكب احتفالية ما يشير إلى تعدد للآلهة، ووصفت النصوص

سكن الآلهة، وحياتهم في المعابد، وطقوس الاحتفالات ووظائف الأشخاص الموظفين في المعابد (كالكهنة والكاهنات) والمنجمين ومفسري الأحلام والسحرة والخبازين والطباخين والخمارين، أي أن المعبد كان مركزاً روحياً واجتماعياً تربطه علاقات وثيقة مع الملوك والسكان.

وفي الفترة الآرامية استمرت المجتمعات في تصوير الآلهة وعبادة الأجداد وخير مثال على ذلك ما عُثر عليه في موقع تل (حلف) من تماثيل لأشخاص جالسين تحمل في أيديها أوعية لاستقبال القرابين، لكن ما يلفت الانتباه أن تماثيل الأجداد هذه كانت لشخصيات نسائية. وأعطتنا هذه التماثيل - من خلال ما تحمله، وتصوره وخاصة شكلها وملابسها ومكانتها من خلال عمليات النحت التي تظهر التفاصيل - الكثير من المعلومات عن الحياة الدينية ،والروحية، والطقسية والتي يدلّ بعضها على مكانة الآلهة أو الملوك والملكات، وهناك الكثير من التماثيل التي عثر عليها في ماري تدل على التعبد بأشكاله المختلفة، وكذلك في إيبلا وأوغاريت والتي تظهر نقوشاً للكواكب، والقرنين في القلنسوة

والصولجان، والحيوانات القوية كالثيران والأسود، فهذه رموز تشير إلى المكانة الاجتماعية والدينية لهم، وهذا يعني أن هناك تنوعاً في الأسلوب والخصائص والمضامين. أما فيما يتعلق بالمنحوتات الأنثوية فلقد أظهرت الجوانب المشتركة فيما بينهن، وعلى سبيل المثال التشابه بين الربة المصرية هاتور والربة عشتار من ناحية التمثيل الواضح عن الحياة والخصوبة، فكانت هناك إلهات للحب والخصب والعدالة والحياة والموت.

وكان الملك يُعدُّ ابن الإله الأكبر وممثله على الأرض، لأن الملك يشكل ضمان الاستقرار والاستمرار لإرادة الإله، وعند موت الملك كانت تقام له طقوس دفنية تكريمية ملكية تحمل صفات إلهية، حيث يصعد إلى سماء الآلهة، لأن الملك كان صلة الوصل بين الآلهة والناس، ويعين الكهنة، ويقدم العبادات والشعائر أي يقوم. بجميع الممارسات والطقوس الدينية الرسمية وخاصة أعياد تقديس الأجداد، وأعياد الزراعة، ومن الأعياد الهامة عيد السنة الجديدة الذي يُحتفل به في الخريف من كل عام بمناسبة عودة إله الطقس من

العالم الأسفل وما يرتبط بذلك من عودة الحياة إلى الأرض وعالم النبات.

مراسيم تقديس الدفن:

تطورت مراسيم دفن الموتى، والعناية بها في الألف الثاني قبل الميلاد، وعملية الموت تعني أن الروح غادرت الجسد، ثم تأتي مراسيم التقديس فيغسلون الميت ويدهنونه بالزيت والمراهم لحفظ الجثمان إلى حين دفنه، وكانت توضع في القبر أشياء متنوعة مع المتوفي إيماناً بعالم آخر، ثم تُقدم الأضاحي، وتُقام المآدب الاحتفالية، وكانت هذه الطقوس تؤدى بالدرجة الأولى إلى العائلات المالكة، وأكبر شاهد على ذلك ما عُثر عليه في المدفن الملكي في موقع (المشرفة) – قطنا – حمص الذي أكدّ مقر الحكام الأموات.

ومن أهم التماثيل التي تصور الآلهة التمثالان الجالسان على كرسي منخفض وهما لحاكمين من قطنا عثر عليهما في الحجرة الأمامية من المدفن الملكي، وهما من روائع فن النحت السوري في الألف الثاني قبل الميلاد، وكانت لهما وظائف متعددة كونهما

يمثلان الأجداد المتوفين من الحكام، وعُثر في داخل المدفن على بقايا لا حصر لها من عظام الحيوانات التي كانت تُقدم كأضاحي لتماثيل الأجداد في قطنا، والذين كانوا من أفراد الأسرة المالكة والنخبة الاجتماعية



المدفن الملكي

أواني كانت توضع مع المتوفي اعتقاداً بحياة ثانية

والسياسية، والدليل على ذلك أيضاً حلي الملوك والآلهة التي وجدت في المدفن (كاسات ذهبية، عقود، مشابك أواني مرمر وكلها مزخرفة تدل على الغنى الاقتصادي للمملكة، وتشير إلى طقوس دفن الملوك حيث أكدت المعطيات الأثرية داخل المدفن أن الملك كان يدفن بلباسه وزينته، إضافة لطقوس وشعائر التقديس التي كان يرافقها طقوس البكاء على الأموات وندبهم، ولكن أهم طقوس العناية بالموتى وتقديس الأجداد تقديم الطعام لهم بصورة منتظمة، مرة أو مرتين بالشهر. ولقد أشارت مقتنيات المدفن بصورة واضحة إلى أهم الشعائر الدينية في مملكة قطنا. كما شهد العصران الهلينسي والروماني تصوير الآلهة، فالآلهة (عشتار) امتزجت مع (افروديت) اليونانية و(فينوس) الرومانية وتمّ تصويرهما بمنحوتات حجرية وبرونزية، وتمثل هذه آلهة الخصب والجمال والعطاء، وأشارت إلى استخدام مادة البخور في هذه الطقوس كونها كانت مادة طاهرة وتحمي من الشيطان ومازالت استخداماتها مستمرة في طقوس بعض القرى السورية.

كما أن ظاهرة تصوير الآلهة وتقديس الأجداد في الفترتين الفينيقية والكلاسيكية ظهرت واضحة ولدينا أمثلة مهمة تدل على ذلك (مدافن عمريت في طرطوس ومدافن تدمر الملكية)، وهي صروح جنائزية تؤكد على الأهمية الكبرى التي كان يوليها التدمريون بشكل خاص للعناية بموتاهم وتقديس أجدادهم.



الإله إيل



الإله بعل

نستنتج من خلال دراساتنا للمعطيات الأثرية أن تصوير الآلهة وعبادة الأجداد اختلفت طقوسها حسب كل عصرٍ لكننا وصلنا إلى نتائج هامة منها: أن القبور في عصورٍ ما قبل التاريخ كانت حفراً بسيطةً ثم تنوعت وتطورت فمنها كانت المدافن الفردية وأخرى جماعية وثالثة فصلت فيها الجماجم عن الأجساد وخاصة في العصر الحجري الحديث (الألف الثامن قبل الميلاد)



آلهة من تل حلف



الإله تيشوب

وهنا ظهرت عبادة الأجداد، ثم تطورت في العصور اللاحقة وأصبحت المدافن أوابد أثرية قائمة كما ذكرنا (مدافن عمريت، تدمر، مدافن الفراعنة..) كما تطورت فنون تصوير الآلهة والملوك وخير مثال (تماثيل ماري، تماثيل آلهة وملوك أوغاريت...).

لذلك نستطيع القول إن سورية كانت سبَّاقةً في نشأة الحضارات على أرضها بسبب عدة عوامل منها بيئية وطبيعية وبشرية فمنها انطلقت الثورة الزِّراعية وأصول الكتابة والفنون واعتبرت مهداً للديانات ومركز الثقل في انتقال التراث المتنوع إلى العالم.

الكنز الذهبي في قطنا:

عُثر في المدفن الملكي على ورشٍ لتصنيع الذهب، وهي من التحف الأثرية المهمة تاريخياً وفنياً وهي عبارة عن هدايا وعطايا مقدمة للموتى، وحملت مواضيع متعددة ظهرت فيها تأثيرات مصرية وإيجية ونذكر منها:

طائر العنقاء الأسطوري المجنح، جسده أسد مع أجنحة ورأس طير جارح، وهو من فنون النقش

والتصوير المنتشر في الشرق القديم، وتميزت به أيضاً ممالك ومدن سورية في الألف الثاني قبل الميلاد، ويشير ذلك إلى صلات دولية بين الممالك، كما عُثر على لوحة ذهبية لشخصين متقابلين تتوسطهما الربة هاتور المصرية، إضافة لوجود لوحة للإله حورس المصري يعلو التاج، كما عثر على لوحات فيها تأثيرات رافدية ومنها لوحات جعبة السهام، ومشاهد الصيد،





إضافة إلى قطع ذهبية متنوعة منها قروط ذهبية عليها صور لحيوانات وبشر وزخارف هندسية ولوحة الشمس، وصفيحة ذهبية لكف إنسان، وطاسة ذهبية، ورأس بطتين وهي من روائع الفن إضافة إلى لقى ثمينة لأحجار كريمة، وأطلق عليها (حلي الملوك والآلهة)، ويشير الباحث الألماني (بيتر فلزنر) إلى أن غالبية قطع الحلي هي من تصنيع محلي تم صنعها في ورش تصنيع الذهب في قطنا .



إن غنى هذا المدفن يدل على المكانة الرفيعة من جميع النواحي لمملكة قطنا، وعمّقت معارفنا بالعلاقات الحضارية التي تربطها مع مصر، وبلاد الرافدين، والعالم الإيجي وخاصة في الألف الثاني قبل الميلاد وساعدتها على ذلك الطرق التجارية المتجهة نحو عكارٍ وباتجاه المتوسط ثم باتجاه الجنوب إلى جبيل ثم شمالاً إلى أوغاريتٍ والطريق الآخر المتجه على امتداد نهر العاصي متجهاً عبر سهل العمق إلى المتوسط.

العلاقات الحضارية

علاقة قطنا مع مصر:

دلّت المعطيات الأثرية المكتشفة في قطنا على قدم علاقاتها الحضارية مع مصر، وأشارت النصوص والكتابات المصرية التي ظهرت في موقع قطنا إلى أنّها تعود إلى السنة الثالثة والثلاثين من حكم (تحوتمس الثالث) حوالي (١٤٤٦ق.م) كما أشارت إلى حملات أمينوفس الثاني (١٤٢٨-١٢٠٠ق.م) وأكدت ذلك مكتشفات (تل الضبعة- مصر) بين (١٦٤٥- ١٥٣٥ق.م) وكانت لهم ثقافتهم وديانتهم ومعابدهم وقصورهم وأكد النمط المعماري لقصر الهكسوس (١٦٠٠ق.م) المشابه تماماً لقصر قطنا، ولكن المكتشفات الأخيرة في المدفن الملكي ونذكر منها: (الصفائح الذهبية التي حملت مواضيع مصرية) أكدت أيضاً هذه العلاقة.

علاقة قطنا مع العالم الإيجي:

كانت فترة عصر البرونز الحديث (١٦٠٠- ١٢٠٠ق.م) هي المرحلة الذهبية للتطور والازدهار للممالك والمدن

السورية وخاصة قطنا وأوغاريت التي كانت تربطهما علاقات حضارية واسعة مع الممالك الداخلية والخارجية وخاصة على الصعيد الدبلوماسي والتجاري، فكان الاتصال بين قطنا وإيجة يتبع طريقين أولهما يتجه نحو الغرب ويمُّر بسهلٍ عكار حتى المتوسط ثم يتجه جنوباً إلى جبيلٍ ثم شمالاً إلى أوغاريت والطريق الثاني كان يتجه شمالاً نحو نهر العاصي عبر سهل العمق إلى المتوسط.

أما السفن فكانت تتجه من موانئ الساحل السوري باتجاه (قبرص) و(كريت) إضافة إلى اللقى الأثرية التي أشارت إلى قدَمِ هذه العلاقة ونذكر منها الأواني الفخارية المتنوعة.

علاقة قطنا مع مملكة الألالاخ- تل عطشانه:

تقع مملكة الألالاخ في سهل العمق كجزء من وادي نهر العاصي الذي استقر على ضفافه الإنسان القديم منذ عصور ما قبل التاريخ بسبب توفر العوامل المناخية والبيئية وكل سبل الاستقرار الحضاري، لكن ازدهار

هــذه المـملـكـة كـان في عـصـر الـبرونــز الحديث (١٦٠٠ – ١٢٠٠ق.م).

تبلغ مساحة الموقع حوالي (٧٠٠م×٣٠٠م) وعُثر فيه على منشآت سكنية منها القصور والمعابد والأحياء الإدارية والدينية وأكدت المكتشفات والدراسات على استقرار الإنسان منذ (٣٢٠٠ق.م وحتى ١٢٠٠ق.م).

وقـامـت في شمـال غـرب سـوريـة بـين (١٨٠٠–١٦٠٠ق.م) دولة (يمحاض ابلتي)، وكانت مدينة حلب تشكل مركزها السياسي وكانت الألالاخ تتبع لها في بادئ الأمر، ولكن في عام (١٧٥٠ق.م) حدث تطور وتعاون واتفاق سياسي بين (يريم ليم الثاني ملك الألالاخ وملك قطنا أموت بيئيل) وذلك بسبب الأطماع والأحداث التي كانت تعصف في المنطقة وخاصة التهديد الحثي لهم في القرن السابع عشر قبل الميلاد .

وأكدت المعطيات الأثرية أنّ مرحلة التطور والازدهار – كما يذكر الباحث مارليس هاينتس في بحثه المنشور في كتالوج معرض كنوز قطنا (ص٥١) – لمملكة (الألالاخ) (سهل العمق) كان في عهد الحكام الخمسة من أسرة

(يريم ليم) إلى أن تمّ تدمير المدينة من قبل الحثيين عام ١٦٥٠ق.م وعلى يد الملك الحثي (حاتوشيلي الأول) تحديداً، وحوالي (١٥٠٠ق.م) تدخلت قوى كبرى في الأحداث السياسية لسورية ولبنان نذكر منها الغزاة الحوريون الذين استولوا على المنطقة وخاصة حلب ثم عينّوا الملك إدريمي (١٤٩٠- ١٤٦٠ق.م) ابن ملك حلب حاكماً على (الآلالاخ) والذي دام حكمه أكثر من عشرين سنة، وتمثاله محفوظ لدى المتحف البريطاني حالياً.

ثم ظهر منافس قوى للميتانيين وهم الحثيون القادمون من الشمال وقضوا على الهيمنة الميتانية في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وحدثت تطورات وتبدلات وتأثيرات لمملكتي (قطنا) و(الألالاخ) في ظل الأحداث السياسية التي حدثت في تلك الفترة، ورغم كل ذلك شهدت (الألالاخ) حركة تطورية عمرانية وتجارية وتبادل حضاري وخاصة مع العالم الإيجي، ولقد ساهمت الشروط المناسبة في نشوء حضارتين مزدهرتين هما (الألالاخ) في الشمال وقطنا في الجنوب وربما المكتشفات والمعطيات القادمة سوف تعمق معارفنا بتاريخ المنطقة.

علاقة قطنا مع جبيل:

تقع بيبلوس – جبيل على الساحل اللبناني شمال العاصمة بيروت وعلى بعد حوالي (٤٠كم) وذكرتها النصوص القديمة بعدة أسماء، فظهرت باسم (جوبلا) في نصوص الألف الثاني قبل الميلاد، وذكرتها الوثائق المصرية باسم (كزبنا)، وأطلق عليها الإغريق اسم (بيبلوس)، أي ورق البردي كونها كانت المركز الرئيسي لها وكانت تشتهر بتجارة هذه المادة.

لعبت مرافئ مينة البيضاء «أوغاريت»، مرافئ جبلة بانياس وطرطوس، ومرفأ جبيل في لبنان أدواراً مهمة في العمليات التجارية (الاستيراد والتصدير) خلال فترة عصر البرونز الحديث (١٦٠٠-١٢٠٠ق.م) وكانت جبيل أهم ميناء للتبادل التجاري بين مصر وسورية، وأكدت النتائج الأثرية أن مملكة قطنا وجبيل خلال الألف الثاني قبل الميلاد تقعان ضمن الشبكة التجارية، وتقدِّم نصوص ماري دليلاً واضحاً على أن قطنا كانت مورداً أساسياً للنسيج إلى بيبلوس، والدليل الأوضح أنه عُثر على مصانع للنسيج كما أكدت الأبحاث وعلى ضوء

المعطيات الأثرية على دور مدن الساحل كوسيط لنقل البضائع ووجود الحرفيين من كلا الطرفين إضافة إلى أن جبيل كانت صلة الوصل بين مصر والساحل الشرقي للبحر المتوسط.

علاقة قطنا مع أوغاريت:

تقع أوغاريت شمال مدينة اللاذقية وعلى بعد (١١كم)، واكتشفت صدفة على يد فلاح من أهل المنطقة عام ١٩٢٩ وأكدت المعطيات الأثرية على الاستيطان فيها منذ الألف الثامن قبل الميلاد، وكان عصرها الذهبي في القرن (١٤-١٣ق.م) واستمرت حتى تدميرها عالم ١١٨٧ق.م على يد شعوب البحر.

عثر في مدينة أوغاريت على آلاف النصوص المسمارية، تضمنت نصوصاً سياسية، اقتصادية، تجارية، دينية، ملحمية، وذكر بعضها علاقات أوغاريت – رأس الشمرة مع جيرانها أي الممالك الداخلية والخارجية.

تتميز المدينة بقصورها ومعابدها لكن شهرتها العالمية جاءت من اكتشاف أقدم ألفبائية متكاملة

فيها، وأول مقطوعة موسيقية سلمها شرقي، إضافة إلى ملاحمها، ومكتباتها (مكتبة راشابو – مكتبة ربانو) ومعبديها (دجن – بعل) وأكدت نتائج البعثات الأثرية على قدم علاقاتها الحضارية مع مصر والعالم الإيجي ومملكة قطنا وأشارت إلى ذلك تماثيلها المشابهة لتماثيل إيبلا وقطنا، إضافة إلى تنوعها الثقافي.

علاقة قطنا مع ماري:

ذكرت نصوص ماري المكتشفة عام (١٩٣٤-١٩٣٨) في القصر الملكي اسم قطنا أكثر من سبعين مرة كما يذكر الباحثان نيله تسيفلر- دومينيك شاربن في بحثهما المنشور في كتالوج كنوز قطنا (٦٥) وأشارت إلى الرسائل الدبلوماسية المتبادلة بين ملوك ماري وملوك قطنا، وذكرت أيضاً التجارة والاتصالات بين الطرفين، كما ذكرنا سابقاً أن رسائل تل العمارنة ذكرت اسم قطنا مراراً.

علاقة قطنا مع بلاد الرافدين:

كان لمملكة قطنا علاقات حضارية متنوعة مع حضارات بلاد الرافدين – آشور – بابل وأكبر دليل على

ذلك تشابه قصر قطنا مع قصور بلاد الرافدين وخاصة تشابهه مع قصر الملك (اشنونا) وقصر (نوردادس) في (لارسا) وقصر (كيش) وقصر الملك (سينكا في أوروك) إضافة إلى تشابه التماثيل في زخرفتها ولباسها وحركاتها وتشبه تماثيل (غولايا) (٢٠٠٠ق.م) لذلك اعتبر الباحثون قصر قطنا مثالاً للحضارة التي كانت قائمة في سورية في الألف الثاني قبل الميلاد، وأشارت أيضاً اللقى الفنية إلى التبادل الدولي والتي أظهرت دور المدينة الهام كعقدة للمواصلات والتفاعلات الثقافية مع ممالك ودول المنطقة بشكل عام وممالك حوض المتوسط الشرقي بشكل خاص.

نهاية مملكة قطنا:

تشير الدراسات إلى النزاعات الكبيرة التي حدثت في سورية بين الدول المتصارعة وخاصة الحثية والميتانية والمصرية والتي بدأت فعلياً في عهد (توضاليا) الرابع (١٣٧٥-١٣٥٠ق.م) وابنه الملك الحثي شوبيلوليوما (١٣٥٠-١٣٢٠ق.م) وكذلك في عهد الملك الميتاني (توشراتا ١٣٥٠-١٣٣٠ق.م) والصراع الدائم بين

الطرفين وتحديداً هجوم القوات الحثية على العاصمة الميتانية (واشوكاني) وتوسعت الحملات وتم تدمير قطنا ونهب ثرواتها، وتذكر بعض رسائل قطنا المعارك الحثية ضد بعض المدن القريبة من اسكندرون.

وكان الملك أكيزي آخر ملوك قطنا، وشهد القصر الملكي حريقاً كبيراً وكان نتيجة للهجوم الحثي على المدينة وتدميرها في نهاية عصر البرونز الحديث أي بين القرنين (١٤-١٣ق.م).

لكن قطنا عادت للحياة في مطلع عصر الحديد أي القرن (١٠-٨ق.م) وعثرنا فيها على مباني سكنية وأواني، وبدأت مرحلة جديدة من التطور المدني المتنوع الاجتماعي والاقتصادي وخاصة بعد ظهور حماة حوالي (٨٠٠ق.م) وظهور اللغة الآرامية والممالك الآرامية في المنطقة، وتمّ العثور على مدينة متكاملة في هذه الفترة في قطنا والتي أصبحت في القرن (٨ق.م) تابعة سياسياً واقتصادياً وإدارياً لمملكة حماه.

وتشير المعلومات المتوفرة إلى السقوط النهائي لقطنا بين (القرن السابع وحتى منتصف القرن السادس قبل

الميلاد) وقد تحولت بعد ضّمها إلى المملكة الآشورية الحديثة وفقدت المدينة طابعها السياسي والإداري والاقتصادي وساهمت أيضاً في نهايتها إضافة إلى العوامل السياسية والاقتصادية العامل البيئي والجفاف الذي ساد في المنطقة.

المراجع

- ميشيل فورتان ٢٠١٢ : تنظيم الفكر كتالوج معرض سورية أرض الحضارات – منشورات وزارة الثقافة – المديرية العامة للآثار والمتاحف– ترجمة موسى ديب الخوري ص ٣٣٣– ٣٣٦.

- جاك كوفان ١٩٩٩ : الألوهية والزراعة، منشورات وزارة الثقافة، ترجمة موسى ديب الخوري.

- المرجع السابق.

- انطوان سليمان – مارك لوبو: كشكشوك –(الحسكة)– منشورات وزارة الثقافة.

- هربرت نير ٢٠٠٩ : تعدد المعتقدات والأديان في سورية، كاتالوج معرض كنوز قطنا، توبنفن، ص – ٧٥.

- بسام جاموس – دانييل ستوردور ١٩٩٤ –١٩٩٩ :

نتائج تقارير الحفريات الأثرية في تل أسود (غوطة دمشق) محفوظة في مديرية التنقيب – المديرية العامة للآثار والمتاحف.

- بيتر فلزنز ٢٠٠٩ : تقديس الأجداد في سورية، كتالوج كنوز قطنا ص:٨٥.

- أحمد سعيد ٢٠٠٠ : عقائد الدفن وعبادة الأسلاف في عصور ما قبل التاريخ، الملتقى الثالث لجمعية الآثاريين العرب (١٢-١٣ تشرين الثاني٢٠٠٠).

- سلطان محيسن - تاكيرواكازوا ١٩٩٠-٢٠٠٠ :

نتائج تقارير البعثة المشتركة حول كهف الديدرية – محفوظة لدى مديرية التنقيب – المديرية العامة للآثار والمتاحف.

- فزعل الاجدي ١٩٩٧ : أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ، ص ٣٩.

- أندريه لورا واجورن ١٩٩٧ : أديان ما قبل التاريخ، مترجمة سعاد حرب – بيروت، ص ٤٨-٥٠ .

- ج.هـ. برستد ١٩٦١ : تطور الفكر والدين في مصر القديمة، ترجمة زكي سوس – القاهرة ص ٨٥ -٨٦.

-أحمد سعيد ٢٠٠٠ : عقائد الدفن وعبادة الأسلاف في عصور ما قبل التاريخ (مرجع سابق) ص ٦ .

- سلطان محيسن ٧٩٩٩: حلب في عصور ما قبل التاريخ، الحوليات الأثرية العربية السورية – المجلد ٤٣ ص ٤٩-٧٠.

- جاك كوفان ١٩٨٨: ديانات العصر الحجري الحديث في بلاد الشام، ترجمة سلطان محيسن دمشق.

- أحمد سعيد ٢٠٠٠: المرجع السابق، ص. ٢٤.

- غلن ريم ٢٠٠٩: تصوير الآلهة في سورية، كتالوج معرض كنوز قطنا – توبنغن ص:٨٩-٩٣.

- المرجع السابق: ص ٨٧.

- هربرت نير ٢٠٠٩: تعدد المعتقدات – الأديان في سورية، كتالوج معرض كنوز قطنا توبنض، ص:٧٦.

- المرجع السابق:ص ٧٧.

- بيتر فلزنر ٢٠٠٩: مقر الحكام الأموات – المدفن الملكي، كتالوج معرض كنوز قطنا توبنض، ص: ٢٠١.

- المرجع السابق ص ٢٠٧.

- عدنان البني، خالد الأسعد ١٩٩٦: تدمر تاريخياً وأثرياً – منشورات وزارة الثقافة – دمشق .

صدر من السلسلة

نحن جزء من هذا الكون	فايز فوق العادة
دمشق	محمد قرانيا
الأشرعة الحمراء	ترجمة: فيروز نيوف
مملكة ماري	ترجمة: قاسم طوير
مختارات من اسامة	
القدس	د. هشام الحلاق
الذرة	حسن بلال
العلم يدهشنا	فايز فوق العادة
مملكة إيبلا	أنطوانيت القس
البيئة: الطبيعة والإنسان	طه الزوزو
قصة الكون والحياة والإنسان	موسى ديب الخوري
ربيع كاذب	عبد الله عبد
صفحات من تاريخ الموسيقا	محمد المصري
الأمير الصغير	ترجمة أنطوانيت القس
قصة اختراع الأرقام	موسى ديب الخوري
الصوت والزمن	د. غزوان زركلي
حشرات في بيتك وحديقتك	هنادي زرقة
طريق الحرير	د. ريم منصور الأطرش
الحاسوب	أويس الشريف

فلزات (سيليكون/كوارتز/حرير صناعي	د. محمد عبود
الثقوب الكونية السوداء	فايز فوق العادة
الفسيفساء	موسى ديب الخوري
فن النحت في العصر القديم	د. تغريد شعبان
التلوث النفطي	د. محمد عبود
المحميات الطبيعية	هنادي زرقة
مختارات من حكايات إيسوب	رسوم ضحى الخطيب
حيوانات المروج والغابات	محمد مروان مراد
قصة اللاسلكي	جهاد سلامة الأشقر
أوغاريت	موسى ديب الخوري
ممالك سورية القديمة	د. تغريد شعبان
التخدير والإنعاش عبر التاريخ	نزار مصطفى كحلة
أساطير يونانية	أنطوانيت القس
تاريخ الرسم	دلدار فلمز
النفايات الصلبة	د. عبير عيسى
الفينيقيون وأساطيرهم	محمد دنيا
الرياضيات علم وفن	فايز فوق العادة
الجراثيم والبيئة	د. سيراؤوس محمد
حكايات الأخوين غريم	ترجمة: د. نبيل الحفار
النانو وتطبيقاته	حسن عز الدين بلال
غزو الفضاء	محمد دنيا
على دروب القرى المنسية	موسى ديب الخوري

أعلام الكشف والاختراع	محمد مروان مراد
قرطاج	د . هشام سعيد الحلاق
أساطير من اليابان	محمد دنيا
أوليات علم الفلك	فايز فوق العادة
نشوء الحياة	هيسم جادو أبو سعيد
المايا	اكتشاف حضارة عريقة
فراشات وأحلام	أنطوانيت القس
العلماء العرب رواد النهضة العربية	محمد مروان مراد
الهندسة الوراثية وتطبيقاتها	حسن عز الدين بلال
من حكايات ألف ليلة وليلة	–